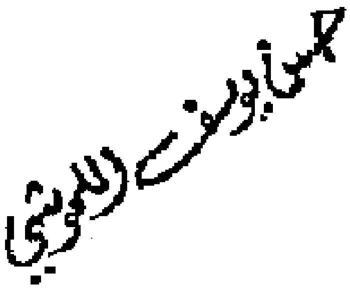
من ذاكرة السكان

شعر

السنوسي حبيب

مجلس الثقافة العام



من ذاكرة المكان
شعر

إصدارات

مجلس الثقافة العام

مـن ذاكــرة الـمكــان

شــعــــر

السنوسي حبيب

الـنـاشـر

مجـلـس الـثـقـافـة الـعـام

اسم الكتاب	من ذاكرة المكان (شعر)
اسم المؤلف	السنوسي حبيب
سنة النشر	2008 م
رقم الإيداع	830 / 2008 م
الترقيم الدولي	0 - 753 - 38 - 9959 - 978

تصميم الغلاف	علي العباني
لوحة الغلاف	محمد الخروبي
التنفيذ الفني	دار قباء الحديثة - القاهرة

الجماهيرية العربية الليبية الشعبية الاشتراكية العظمى

إصدارات

مجلس الثقافة العام

المقر الرئيس - مجمع المؤتمرات - سرت

هاتف 002185468622 - بريد مصور 002185473161

فرع طرابلس - عمارة الواحات - شارع عمر المختار

هاتف 00218214449894 - بريد مصور 00218213335388

ص ب 2764 طرابلس

فرع بنغازي - الفويهات الغربية - الطريق الدائري الثاني

هاتف 00218612241577 - 00218612241578

بريد مصور 00218612241576 - ص ب 9351 بنغازي

بريد إلكتروني - LCC2_2005@Yahoo.ca

طرابلس

مهلاً طرابلس الجميلة
لا تفرّي من الأصابع
لي على طرف الجديلة موعدٌ
يزداد قرباً كلما شطت مشاوير اللقاء
وخيّمَ الرمل الثقيل على حدود الماء
ألفيت الجديلة قرب نافذتي
نهاراً حافلاً بالورد والصبوات
قلتُ البحر أفلت موجةً
وانداح يطلبها على الرمل الكسول
فبرعمت كميّن من وجدٍ وتحنان طفولي
يخطّ على الرمال الأحرف الأولى من الأسماء

يودعها سذاجته الحبيبة
هذه لامٌ كحربون السفينة
شدّني للأرض
والياء التي في النحو
تعني تملّكي الأشياء
ألقتني لخمسة أحرف أخرى
فكان السجن فاكهة الرماد
مُخمّس الأضلاع
خمساً ضد خمسٍ
كل حرف صار ضلعاً
لا غرابة ذا التشابه لا يضير
ولا ملامة إن قسوتِ
فيا طرابلس الجميلة

عفو حبكِ إن شتمتُ الشامة السوداء في الوجه الجميل
وبنية الأسماء دلتني علي هذي المفارقة العجيبة
بين اسمين
الحبيبة والبغيض الوقع
لا أجفو التي أهدت حليب الروح
والخوخ الطرابلسي تغويني طزوجته وملمسه اللذيذ
أكاد أنسى القيد في رسغي
ألوّح بالتحايا للحمائم
وهي تمرق من أمامي كالغزالات الشرود
ولا أبوح برغبة جذلى
توشوش في دمي
مُذ صارت الأرض اختصاراً موغلاً في الرمز
يدنو ثم يخبو

والأصابع لا تمل من الملاحقة اللعوب

ولا فكاك

فهذي واسطة الحروف الباءُ

شدتني لحاء الحُب

والياء التي في الأمنيات البكر

دلتني

على قلبي ومفتتح الحروف

وحبٌ

كل ما تحويين بين اللام

والألف الطليق يدٌ تلوّح بالسلام

ليبيا ويبتدئ الكلام

بسم التراب الخصب

هل نمضي مع الإيقاع

حتى أول الإيقاع

لكنْ

تركٌ وتنتصب السرايا

قبلةً للماء والفرسان

تحت الماء أقبية وخصيان على الأبواب

يحصون الأماني والكلام الحلو

فوق الماء أبراجٌ

ومبعوث الخليفة يحصرُ الأعشار

والعمر القصير وما تبقى من أغان

يضيف سوراً حول سور القهرْ

عشّارون يمضون ويأتون من الواحات

والرمل امتدادٌ أصفر لا ينتهي

رملٌ يلوذ بنفسه ويعود رملاً

بحرٌ يبيع جماله ويصير سوطاً
سورٌ يسوّر نفسه ويصير هشاً

....

أهلاً طرابلس التي نامت بحضن البحر
واسترخت جدائلها فويق الماء
هل أغواك سحر الموج
أم ألهاك نقر الدفّ والطاسات
أم أضناك نزف الجرح
هل أغضيت من تعب وجوع
مهلاً تحاول قبضة الأحزان ترويضي
ولكن الجديلة
سلّمٌ يمتد فوق الماء

هل تختارنا الأيام

أم يختارنا رمزٌ جديد.

الحصان الأسود 23 . 8 . 1983

المدينة

كنت غرًّا حينما راودتها

وتغزلتُ بعينيها وقبَّلت الهواء

غمرتني بالزغاريد ومنَّتني اللقاء

غير أني قد تمنيتَّ اليدا

فتوهَّمت خباءً

وتوهَّمت جواداً

وتوهَّمت قتالاً وانتصرت

وحللت المسألة

غير أني لم تكن كسرة خبزٍ

ما تشهَّيت ولا جرعة ماء

. . . .

كنت مشحوناً بإحساسٍ من النشوة
فتاناً شجياً
يتمنى النهر في الصحراء
والنخلة في البحر
ويشتطُّ مع الحلم
ولا يعرف حلاً للسؤال

. . . .

هل تنازلت عن النخلة ؟
كان زهر اللوز فتَّاناً
توهَّمتُ الربيع أطلَّ
ألقيتُ العباءة
وامتطيتُ الحلم
غنَّيت النهار الصحو

كان الليل شرطياً على الأبواب ينسل
ولا يغفل عن همسة طفلٍ في الظلام

....

هل تحب البحر ؟
لا أكره إلا الليل إذ يفُرخ جرذاناً
فتجفونا المدينة
رغم أنّا قد تعلقنا بعينيها
ولم نعطِ سواها موعداً
آهِ من هذا الهوى ما أصعبه
قلت يا آسرة القلب
هبيني لحظةً من عمرك الممتد بين البحر والصحراء
قال الحارسُ الواقف بين الهمسِ والإصغاءِ : لا
سقطت في الصمت

واستلقت على معطفها الليلي سيلاً من ضباب

....

هل حللت المسألة ؟

قالتْ المرأةُ والدمعةُ تكوي خدها

قُلتُ : كان الوقتُ خداعاً

وزهر اللوز برَّاقاً

ولم ألقَ من الأشياء إلا ظلها في الماء

من يُنزل هذي الصورة البلهاء

من بروازها المائي

من يقلب هذي اللحظة الخرقاء وقتاً من صباح

آهِ كم تنهشُ في القلب الجراحات

ولا تنبت في السهل الأقاحي .

الحصان الأسود 22. 3 . 1984

كلمـات

سراً تحلُّ بجانبي

همساً تجيء ، تزيح من حولي الكآبة والسأم

وكما تدبُّ على شفايف وردة قطرات طلٍّ

أو كما يدنو السحاب

فتنتشي روحي بما خلقت

وتدعوني لألقاها

مساء السعد يا هذا الجمال البكر

كيف نزلتها سبعاً من السموات

كيف اجتزتِ هذي السبعة الأقفال والحراس

كيف عبرتِ كل مجاهل الصحراء

والمدن العدوَّة والجنازير الخراب

وغضبة السجَّان

فسبحان الذي أسرى بكِ سبحان

تقولينَ الهوى قتَّال ؟

أجل يا فتنتي وهُداي

وهل من ينكر الألم اللذيذ ولوعة الأشجان

ولكني مدى سبعاً من السنوات

لم أفرحْ ببدر تمام

ولم أضغطْ على كتفين يرتعشان

تحت يدي من خوف ومن تحنان

حزين ؟

آه لا أدري ولكنَّ الهوى ظمآن

فهاتِ ما يرطِّب هذهِ الأشجان

هاتِ لمسةً أو قُبلةً من ثغركِ الريَّان

حزين ؟

آه لا أدري ، وهل بعد اعتياد السجن من أحزان

....

خلقتك كيفما أهواك

جمعتك من حفيف الريح في الأغصان

ومن عطشٍ يعلّقني طِوال اليوم من عيني

بالأفق الذي يمتد

ومن شجرٍ توغّل في فضاء الحلم

أدرك غيمة في البعد

داعبها وراحا في عِناقٍ مبهم مدرار

خلقتك ديمةً

وظللتُ أنتظر الهطول الوعد كل مساء

مساء الخير يا سجّان

مساء الخير يا أشجانْ

مساء الخير يا نجمي القصيّ البعد يا فتَّان

تظل الليل في عليائك الفيحاء

تحوِّم حول نافذتي

وما من منفذ للعين كي تلقاك

فطلّي كلما حل المساء بباب ذاكرتي

و صُبّي كأسك الوهَّاج في كبدي

دعيني أنتشي بسخونة الإيقاع

لا تخشِ على الموت من هذا الحنين المرهق القتَّال

فلي سبع من الأرواح

سأعطي الروحَ تلو الروح

كي ألقاكِ ذات زمان

....

هنا منذ خمسين عاماً مضت

حلَّ رهطٌ من العاشقين

استفاقوا على الحبِّ حين يبرعم في دمهم

واستدلوا على دربهم جذوةً لا تملُّ اتقاداً

فأعطوا مواويلهم طعمها واختفوا

قضوا ومضوا

وقد تركوا حلمهم في المكان

....

ربما بعد عشر سنين

ربما بعد خمسين عاماً

صار هذا المكان

مسرحاً أو حديقة

ربما يلتقي عاشقان

قرب هذا الجدار الكئيب

ربما يقرآن

ذكريات المكان

تحت هذي السماء التي شهدت عاشقاً مُثقلاً بالحنين

يكسر الزمن المرَّ منتظراً أن يضم حبيبته ذات صبحٍ مُنير.

....

يا لسبعٍ عِجاف

تخثرن في جرة الزمن الرخو

صرن كساعة رملٍ

تقلب حباتها طول عمر الزمان

لا الرمل ينفذ

ولا الوقت يأتي بيوم جديد

حزين ؟

أجل مسني الحزن حين استبدَّ بي الليل

فتشت حولي

فلم ألقَ إلا الزنازين والحرس الفض

يرتج أبوابه السبع دوني

يُبدّل خطواته فوق رأسي مدى الليل

يسرق من جفن أمي

هناءتها ويشيّد سجناً جديداً

لا الرملُ ينفد

ولا القلبُ يرضى يكفّ عن الحلم

ما ظل سجن

رويداً . . رويداً ستخبو المواقد

وينضج كرم المواجد

ويمتشق الحلم سيفاً ووردة
لينتشل العمر من وهدة الرمل
يسري به عنوةً ذات صبحٍ طليق .

طرابلس في 19 . 2 . 1983

لـوديــف 2005

1 ـ النهر :

ماءُ كثيرُ من حولك

لك أن تشربه كلهْ

هواءُ نقيٌّ من حولك

لك أن تستنشقه كلهْ

جمالُ كثيرُ يحيط بك

لك أن تستمتعَ به كلهْ

نساء ينط الحبور من كل جوارحهن

لك أن تغازلهن جميعاً

فتيات رشيقات يمرحن من حولك

لك أن تراقصهن جميعاً

بساط من العشب الغض تحت قدميك
لك أن تفترشه كله و تنام
أشجار شاهقة تزهو بعصافيرها
لك أن تستظلَّ بها كلها
كجدك آدم قبل أن تستفردَ به حواء
أصدقاء ظرفاء يبتسمون لك في ود
لك أن تسعد بهم جميعاً .

2 ـ الشعـــراء :

من مختلف بلدان المتوسط
تعبق أنفاس قصائدهم
أزقة لوديف و ساحاتها
العرب منهم خاصة

من أَلِفَ التشرد

ومن لا يزال على قيد الوطن

يغطون البيرة في جرعات كبيرة

يمزمزونها بتعاستهم

وما أهدتهم أوطانهم من أحزان .

3 ـ أوليفيــا./ أ :

كما لو كانت تهمسن

كما لو كانت توشوش

كما لو كانت تتضوع

حين تقرأ ترجمات القصائد

يتلون صوتها وفق الإيقاع

يتموَّجُ أحياناً

وينسابُ سلساً أحياناً أخرى

تنغم الكلمات كما لو كانت تسبح في حلم

بعذوبة و هدوء

تزهر وجنتاها بحمرة خفيفة

وتنساب ابتسامتها

دفقة دفء و حنان

تختتم بها القصيدة .

أوليفيـا / ب :

حين تغني لفيروز

"زوروني كل سنة مرة "

ترفعك عالياً عالياً

تحلّق بك كما لو كنت تطير

نحو حدائق بكر

يحملك صوتها

حين تنتشي بالأغنية

تفتح ذراعيها واسعاً

ومع انحدار النغم نحو نهايته

تضمُّ يديها إلى صدرها

و تغمض عينيها في انتشاء .

4 ـ بيــير :

الطفلُ الصغيرُ ذو العامين و نصف :

ذكّرني بأصغر أولادي

يوحدهما العمرُ

واللغةُ المشتركة

حين ينادي كل منهما ماماَ
يتشابهان في الطول و البنية
ويختلفان في لون البشرة
بياضُ تشوبه شقرة خفيفة
وبياضُ تشوبه سمرة خفيفة
شعرُ أشقر
وشعرُ كستنائي
يوحدهما اللعب البريء
وجمع الأشياء الصغيرة
يسأل " بيير " أمه
من كل هؤلاء الغرباء
الذين يرفعون أصواتهم بالكلام
ويطوحون بأوراقهم في الفضاء

هؤلاء هم شعراء المتوسط
يقيمون مهرجاناً للشعر
كما كانت العرب
تقيم عكاظ منذ ألفي سنة مضت

5 ـ العواجيـز :

يبدو أن الشعرَ
صار بضاعة من الماضي
لا يحضر القراءات سوى العواجيز
ربما يجدن فيه عزاء
أو ذكرى أيام خلت
بينما تزحم حفلات الغناء و الموسيقى
بآلاف الشباب
الذين ما إن يبدأ الإيقاع

حتى ينطلقوا في الرقص

أفراداً و أزواجاً .

لوديف 30 . 7 . 2005

مرسيليا

المرأة و الكلب :

السيدة التي تتبع كلبها
ممسكة بالشريط الملون المشدود إلى رقبته
تضبط خطواتها على خطواته
تاركة له العنان
أن يسحبها وفق رغبته
مركزة نظرها على اهتزازات رأسه
و ارتجاج فروته
ينساب بها بين المارة والأشجار
بسهولة و يسر وهي تتبعه باطمئنان
واثقة من ذكائه و خبرته

عند المفترق

الإشارة على اللون الأخضر

المارة يعبرونها مسرعين

يتوقَّف الكلب تماماً

الصورة المضيئة كانت لإنسان يعدو

إذن

جاء دورُ المرأة

أن تسحبَ الكلب بدل أن تتبعه .

نســـاء :

جميلات من مختلف الأعمار

لا يرتدين من الثياب إلا ما خفَّ

ما يخفي فقط مواضع الرغبة المباشرة

يمشين لا متمهلات و لا على عجل
عطورهن النفاذة تنعش الحواس
لايصطحب أطفالا سوى المغربيات والصوماليات
أما الأخرياتُ
فينفردن بأنوثتهن
فقط البورتابل
أوصحبة رجل من نفس العمر .

3 ـ النوافير :

يبدو سكان هذه المدينة
مثل كائنات مائية
الماء حولهم في كل مكان
يتقدم البحر في وسط المدينة

وفي كل شارع

أكثر من ميدان

وفي كل ميدان حديقةُ صغيرةُ

وفي كل حديقة

نافورةُ تضخُّ الماءَ و حول الماء

تنتشر الحاناتُ

حيث يحتسون البيرة و يبتردون .

4 ـ المرسى :

يتوسط المدينة كما لو كان قلبها

كمّ من العبيد استقبل في العصور الغابرة

يبدو اليوم كلوحة زيتية

في المقدمة الماءُ و القواربُ الصغيرةُ

في الخلف عماراتُ شاهقةُ و أبنيةُ قديمة

على الرصيف عجائزُ صوماليات

يبعن أشياء صغيرة

و يحاولن جلب المارة بالثرثرة .

5 ـ جزائريون :

في البارات و الفنادق

في المطاعم و الساحات

تجدهم في كل مكان

الكبار يقدمون الخدمات

و الشبابُ يشاكسون الفرنسيات

في جرأة و لكنْ بلطف

6 ـ حذائي :

حذائي دليلي

أتبعه دون تفكير

يأخذني إلى حيث تستمتع عيناي
بالوجوه الجميلة
و المناظر المبهجة
بالنوافير و المباني القديمة
بواجهات المحلات و الحدائق
حيث أتعبُ من المشي
أجلسُ إلى كأس بيرة بارد
ووجه حسناء
تقدمه بابتسامة صغيرة .

مرسيليا : 5 .8 .2005

مـصـراتـه

سـباحـة :

أي قدر ألقى بها وسط الماء
بكامل ثيابها
وبكامل ما يثقل عقلها من أوهام
وروحها من أحزان
الفستان الملون و السروال الأسود
الجلباب الحريري الفضفاض
والأشارب الضافي
مثل خيمة نصبت على الماء
ينفخ الهواءُ أطرافها
وتلطم الموجةُ وجهها
تواصل المرأة المحجبة سباحتها العجيبة .

الأطفال :

مثل أسماك زينة صغيرة

بلباس البحر الزاهي

و وجوههم الملفوحة

يناطحون الأمواج

و يتقاذفون بكرات الرمل

ينشرون بهجتهم في المكان

و يمتلكون البحر

بضربات أذرعهم الصغيرة

صلاة الماء :

سجادة الماء

مفروشة على اتساع الأفق

لا سفن ترفع أشرعتها

لا قوارب تبرقشها

لا صيادين ينزلون أحمالهم

فقط الأمواج

تواصل صلاتها الأبدية

ناشرة وشوشاتها

ليل يبسط نفوذه

في تؤدة و مخاتلة محببة

وهي واقفة كتمثال

ظهرها للمقهى

وعيناها على صلاة الماء

المدينة :

حيث يلتقي الرملُ و الموجُ

الماءُ و القيظُ

الزرقةُ الداكنةُ
والاصفرارُ الباهتُ
هنا نمت عبر القرون
ظهرها للماء
وذراعاها للصحراء
ولذا
لا تجيد المصراتيات
السباحة ولا طهي السمك .

نـخيـل :

لا سعف أخضر يعلوها
و لا عرا جين بلح تتدلى منها
جذوع نخل يابسة
جردت من زينتها

لتنتصب في المنتزه

مثل شواهد القبور .

تصحـر :

ماء و لا ماء

بحر و لا بحّارين

عشب و لا اخضرار

فقط

رمل بكامل قواه الرملية

وشمس لا يداخلها شكّ

الصحراء تمجّد نفسها

و تُرضع البحر .

مصراته في 8 . 2005

غدامس

للمدن شرايين للماء العذب

وأوردة لاستكمال دورة الماء

أما غدامس القديمة

فكمكعبات النحل

بيوت متلاصقة ومتراكبة

لها فقط

شرايين متعرجة

تمتاح من عين الفرس

عذوبتها عبر القرون

جداول رقراقة

وسواق موشوشة

أسفل المدينة

للصبايا فقط

ميزة الاستحمام

أما الرجال

فلهم ميضاءاتُ الجوامع

وللأطفال شغبُ الحقول

وما يسَّاقط من رطب نخيلها

وللزوار

عبقُ البخور

ومتعةُ الفرجة

على ما أبدعت

أنامل الغدامسيات

من نقوشٍ حمراء

على جدران بيوتهن

القادوس :

عجوز غدامسي

يقرفصُ أمام إناء يرشح

يحسب الزمن بقطرات الماء

الساعة 8 رشحات

والرشحة 300 عدة

على أصابع اليد

ترى كم أمضى هذا العجوز

من سنوات مائية

يحسب الرشحات

بسعفاتٍ معقودة من طرفها

ضيافة :

حين يلتقيك الغدامسي

لا يحس بك

أما إذا استقبلك في بيته

فإنه يفتح لكَ قلبه أولا

ثم يغمرك البيت

بفوح البخور

ودفء الابتسامة

والإصغاء لما تقول

طوارق المهرجان :

بثيابهم الزاهية الفضفاضة

ومهاريهم الرشيقة

طويلة الأعناق

يقيمون نجعاً احتفالياً

تبيع النساءُ المشغولات اليدوية

ويرقصُ الرجالُ بسيوفهم اللامعة

على وقع الطبولِ والغيطة

مطلقين صرخاتهم المقتضبة

حين تهزهم النشوةْ

هون في 20 .11 . 2005

سيـاحـة

- " أبو صقل[1] " :

حيث أحب أصدقاؤك العرايشة
إبهاج أطفالك بجمال بحر سيناء
ذي الزرقة الجذابة والمياه الدافئة
معزولاً عن العالم
ومحاطاً بالماء
لكَ متعةُ السماء الزرقاء والبحر الأزرق
لك أنْ تنعمَ بالشمس
وأنْ تلتحف البحر
وأنْ تشربَ البحر
وأنْ تطعمَ أطفالك البحر .

---

(1) " أبو صقل " : مصيف معزول بالعريش .

" سما العريش [1] " :

جنةُ صغيرةُ وسط الصحراء
بساطُ عشبيٌّ يمتد حتى البحر
تزينه نخلات شابة
ذات عراجين حمراء
مكتنزة كصدور العذارى
تنعكسُ صورتها على وجه البحيرة
تسبحُ النخلاتُ ولا تبتل ضفائرها
يتسابق الأطفالُ لالتقاط البلحاتِ السابحة ..

ـ " المهرجان [2] " :

ثلاثة نقالات لا تكف عن الرنين

---

(1) " سما العريش " : قرية سياحية .

(2) " المهرجان " : مهرجان الهجن بمدينة العريش .

يتم عبرها كل شيء

العروض والسباقات واستقبال الضيوف

لا يتوقفُ " الحاج عيد " عن إصدار تعليماته

ولا يتوقفُ " حُسام " و " هِشام "

عن الركض في كل اتجاه ..

- **الهجن :**

تركض الجمالُ الرشيقةُ عبر المضمار

تتباهى البكراتُ في استعراض جمالهن

تظفرُ " بيلي [1] " بالسيف الذهبي

ويظفُر الضيوف

بكرم شيوخ بدو سيناء

(2) " بيلي " : من قبائل سيناء .

مناسف ثقيلة

وقهوة منكهة بالهيل ..

- **رفح :**

حين اقتربنا من بوابة صلاح الدين

لعلع الرصاصُ من البرج " الإسرائيلي "

فتذكرتُ قصيدة أطفال رفح

للشاعر " سميح القاسم "

على مرمى البصر

خلف الجدار الفاصل

تلمعُ بيوت بيضاء

ذات قرميد أحمر

ترى في أيٍّ منها

ينعمُ أطفالُ فلسطينيون

بالطمأنينة و الدفء .

- مطروح :

استبدل المطاريح

ثيابهم الطويلة

بقمصان حديثة

إلا أنهم لا زالوا بدواً

يستضيفونك بإلحاح

ويكررون السلام مراتٍ عديدة .

" هون " 21 . 9 . 2004

الجفجف

عملاقانِ ضخمانِ يتوازيان في رحلتهما عبر المدى، مكاناً وزماناً، يمدانِ ظلالهما بجبروت وقوة لا حد لسطوتيهما.

يلتقيانِ أحياناً في انطباق كتوم لا يترك متنفساً ولا بصيص نور.

ويفترقان أغلب الأحيان، كل يسعى بطريقته الخاصة أن يحقق امتداده وفرض وجوده ويبرز سطوته، أحدهما بخشونته الجارحة والآخر بسلاسته الخادعة، يفسحان المدى لانفراجات تتراقصُ عبرها نسمات رقيقة أو تعبث فيها الرياح العاتية دافعة أمامها ما تطال.

يقتسمان المدى بتواطؤ لا تدركه العين، ولا يخطئ القسمة حين يتقاسمان، كل واحد يحاولُ الامتداد على حساب صاحبه أو يواطئه ويقتسمُ معه المكان،

يشكلانِ الجغرافيا ويبرقشان الأفق عبر السنوات وتوالي العقود وتصير الزمان.

يعاندانِ الزمان بمراوغة لا تمل، ويختصران الوقت والأيام والفصول أحياناً، وينصاعانِ له أحياناً أخرى في خدعة استسلام يوهم بخمودهما وركونهما للدعة.

ويكشرانِ عن أنيابهما في وجه الإنسان اغلب الأحيان، ينسفانِ جهوده ويكسران ويطمسانِ أدواته ومعاوله، ينسفانِ ما أنجز من نباتات ومبان، ويرجعانه إلى نقطة البدء، ولكنهما أحياناً أخرى يخضعانِ لجبروت عقله الخلاق وإصرار إرادته حين يحاصرهما بدأبه على العمل في ترويضهما وطول حيلته تجاههما، وتأني تدبيراته الدؤوب.

الجفجف هذا الخرافي، والذي جاء اسمه من مفردة جفّ، أي نفذ ماؤه وتيبس واخشوشن وصار مؤذياً، بصحراويته العابسة، وصلابته الشهباء المؤذية للعين أنّى نظرت، وقشوره الحرشاء، تجرح الأقدام أينما وطئت، وملمسه الخشن الوخاز أنّى وضعت اليد.

ضَبٌّ ضخم يستلقي مرخياً أطرافه المحرشفة تحت الشمس، تلاقيك حراشيفه الوخازة كيفما لمست اليد أو وطئت القدم عبر المدى الممتد.

لاتقاومه مداس مهما تذرعت ولا يصمد في وجهه قفاز مهما تذرعت بالصبر.

حالة من الخشونة تمتد وتمتد على مرمى البصر، ومسعى القدم وتشوّف العين، وما تطمح اليدان أن تنالا، خشونة لا يقهرها إلا الدأب على العمل الخلاق، وسعة الصدر والحيلة في التدبّر وتوطين النفس على طول البال، والتسلح بالصبر الجميل، فما لا يُنجز اليوم فالباكر وما بعده كفيل به، وما تعجز عنه اليد المجردة يروضه الفأس وتفلح معه المسحاة أو المحراث، وما تقف دونه اليد والمعول عاجزين كفيل به طول الوقت وكر الأيام وتوالي الليالي، والتفتت الصبور للجلمود الصلد.

الرمل العملاق الآخر، التوأم الموازي، امتداد ثعباني

يتمعج بجبروته الناعم كثباناً ناهدة، تعلو وتعلو أحيانا حتى تلامس الأفق وتسد المدى، وتنساب أحيانا أخرى سيوفاً هلالية، متكومة على ظهر الانبساط، طامرةً حراشف الجفجف، كاسيةً نتوءاته المؤذية ومخفية وجهه الخشن.

قباب صهباء أو غارقة في لون العسل، مشوبة ببياض حليبي يلتمع تحت وهج خيوط الشمس صفيحاً ساخِناً يشوي الأقدام ظُهراً، ثم ينقلب بساطاً حليبياً رخواً، يهسهس تحت الجسد مستسلماً لغواية ذوب القمر وبهاء طلعته وغلالته الخلابة ليلاً.

سلاحفٌ صحراويةٌ تنيخ في الفضاء، ترتفع قبابها كخيام في البرية، يملؤها الهواء ويرفع أطرافها عالياً، تحني رؤوسها وتحبو في اضطراب، زاحفة على ما حولها في تمهل شديد، لا تدركه العين ولا تضبطه الحواس، تناور وتخادع، تنداح بتؤدة من لا همّ وراءه، وبحسب امتداد الوقت وانسياب الزمن لمصلحته، وبألفة قط بيتي

مدلل تنسل عبر جزيئات المكان طامرةً على مهل الشجيرات الصغيرة والأعشاب والأجمات فارشة رداءها الناعم السلس سجادة لصلاة مبهمة لكاهن مجهول يمارس طقوسه في عزلة وكتمان، تقدمهما لا يدرك ولا يُحس به إلا حين ينيخ على المكان، ترسم قبابها المتلاصقة شوطاً بعد شوط، وتلقى عباءتها الثقيلة في كسل وهدوء.

حالة من الغمر الرملي تنداح بهدوء وحذر متمهلة الخطو، ثقيلة الوطء، بريئة الحذر، مجسدةً جبروتها الناعم أهلةً من عسلٍ وحليب.

يلاحق الليل النهار، يرخي عليه عباءته السوداء الفضفاضة المبرقشة بوميض نجوم شديدة العلو وخلابة الوميض .. ويعدو النهار خلف الليل طاوياً أطراف ردائه المحملة ببقايا النعاس وآخر ما تبقى في المدى من كسل، باعثاً أول الشقشقة وصيحات الديوك الثاقبة المبشرة بولادة يوم جديد، واشراقة شمس متوهجة الحمرة

وانطلاق نهار .. دافعاً دم الحياة الدافق في شرايين المكان .. شمس متوهجة الحمرة تزحم حافة الأفق ناشرة دفئها الحنون، منشطة الأوصال في أصباح الشتاء، منضجة المحاصيل وكاوية الرؤوس في قيلولات الصيف.

قمرٌ جميل يُبهج العين ويملؤها غبطةً وسروراً، يشرح الصدر ويسر النفس، يهدي السائر التائه ليلاً يكسو قباب الرمل بذوبه الحليبي، حُلياً فضية على صدر حسناء صحراوية.

ويظل الجفجف سيد المكان والقانون الذي لا يعلوه قانون بحراشيفه الضبية الوخازة والرمل الكسول بقبابه السلحفية المنداحة يظلانِ عملاقين يتوازيانِ أحياناً ويتعانقانِ أحياناً أخرى، يفترقانِ ليُعطيا الإنسان فسحة أن يقيم بجهده الدؤوب ملاذه ومأواه، غابات نخلٍ صغيرة، وبساتين أصغر للفواكه الصحراوية وما يسد رمقه من خُضَر وحبوب، وأن ينجزَ بيوتاً صغيرة ملتفة على نفسها ومتساندة لتأويه من الحر والبرد وعصف

الرياح، ولكن العملاقين يتقاطعانِ مراتٍ أُخرى ليسداً الأفق ويحدًّا من انطلاق الإنسان وتحقيق إرادته.

تفتت الأمطار النادرة جزءًا من الجفجف وتكشط الرياح جزءًا من حراشيفه لتذروها على أطراف ما ثبَّت الإنسان على وجه الأرض، ولتنبت للجفجف حراشيف أخرى، وتذرو الرياح جزءاً من كثبان الرمل ذروراً تسفوه إلى جوار ما أنجزه من بيوت وحظائر واستحكامات وأحواض للزرع، وغابات نخيل، في جهده المتواصل للتغلب على قسوة الطبيعة واستئناسها وتوظيفها لمصلحته ومصلحة مسعاه لأن يشيد حياة تليق به وتواصل استمرار الحياة، وخضرتها وإيناعها وسط شواظ الصحراء وقسوتها.

العراك مع الجفجف جهد متواصل لتفتيت حراشيفه وتحويلها إلى تربة وجعلها صالحة لأن تكون مهداً لانبثاق النبتة، فوريقات فنبتة مزهرة ثم ثمرة تبهج العين وتملأ البطن وتسد الرمق.

مزج دؤوب لذرور الرمل الناعم بفتيت الجفجف

وإخصابهما بعضويات ما يخلفه الإنسان ودوابه، لتنهض على ظهر الجفجف بساتين خضراء، تزدهي بأنواع الخُضر وفواكه الصحراء وسوامق النخيل بما يوفر إمكانيةً لحياةٍ بسيطة سمتها الكفاف، ونكهتها الكدح، قهراً لجبروت بالصحراء وخلقاً لمجد الإنسان في أن يظل حياً وفاعلاً بما يتوفر من إمكانيات.

الحياة قرب الجفجف تقومُ على إفنائه أو إفنائك، تذويبه أو تذويبك، قهره أو قهرك، ولكن الجفجف هذا الجبار الخرافي يسلس وينصاع ويتحول ويُثمر تحت وقع معول الإنسان ودأبه وسعة حيلته وطول صبره وتدفق عرقه عبر السنوات.

الـواحـــة

في أقصى الأفق الغربي لمدينة هون، يشمخ جبل " فلقي"، يظهر أمامك وأنت داخل إلى المدينة، معمماً بزرقة داكنة، مهيباً ومتناغماً مع" قارة عافية " التي تبدو كهرم رشيق يلمع في الأفق.

أمام هذين الجبلين في السفح، تتناثر شجيرات طلح داكنة الخضرة، محاطة ببعض الشجيرات والأعشاب البرية، هي كل ما تبقى من الغطاء الأخضر الذي تذكر الروايات الشفهية المتناقلة عبر الأجيال انه كان عامراً بقطعان الودّان والغزلان والأرانب البريّة وأسراب النعام.

ذهبت الخضرة واختفت القطعان مع مر السنوات وندرة الأمطار، وظل الجبلان مصدراً للحكايات والقصص ونسج الخيال ومنزلقاً للسيول التي كانت تتدفق منهما في تلك الفترات المطيرة حيث كانت تمتلئ الشعاب

والبطاح وتتدفق الأودية في اتجاه الواحة، كان " سوف انجلّة " أو سوف ألجين يأتي متدفقاً إلى أن يستقر غرب الواحة في منخفض " أم المعزة " فيكون النماء قطعاناً من الماشية و أرتال الإبل وأحمال القمح والشعير، وتوافد حيوانات الصحراء للرعي والارتواء.

كان الماء غامراً تمتلئ به الأودية، فترتوي الأرض وتسرّب كميّات منه إلى جوفها مخزوناً لسنوات الجفاف.

لقد ذهبت تلك الفترات المطيرة، وظلت أسماء الأودية، وادي سوف انجلّة ووادي الفرس و " الودي " ووادي القصير، وظلت الذاكرة الشعبية تتحدث عن تلك الأحمال الكثيرة من القمح والشعير والذرة والفول، محاصيل هذه الأودية التي جفّت مع مر السنوات وامتلأ بعضها بالرمل.

في الطرف الشمالي للواحة يسيل وادي الفرس من الغرب إلى الشرق وينتهي وسط الصحراء ببحيرة عندما

تجف بفعل التبخّر تتحوّل إلى منجم للملح الطبيعي، كان بعض بدو الجوار يحضرونه إلى الواحة يبادلونه بالتمر أو الخضار .. يتفرّع من هذا الوادي شعبة عرفت باسم "الودي " والذي يبدو أنه اضمحلّ وامتلأ بالرمل وتحوّل إلى تربة صالحة لغراسة النخيل وهو يشكّل الآن أقدم غابة نخيل بعلي بالواحة حيث يقاوم ما تبقى به من نخيل زحف الرمال وغائلة التصحّر، كان هذا النخيل يضرب به المثل في جودة إنتاجه وكثرته، ولكون هذه الغابة في الطرف الشمالي للواحة والمحاذي للصحراء والأودية الجافة فقد كان مستهدفاً من الإبل السُارحة في الصحراء مما استوجب أن يكون له حارس يعرف باسم" الحمّاي" يقيم له زريبة وسط الغابة ،يسكنها طوال الموسم ويكون له نصيب محدد من المحصول مقابل حراسته للنخيل وحصره للإبل المعتدية أو لصوص التمور نظام الحمّاي هذا كان معمولاً به في كل غابات الواحة، في" بينوى " و " الجلهة "، غابتا النخيل الواقعتان

جنوب القرية، هاتان الغابتان كانتا في الفترات المطيرة مرتعاً للأرانب البرّية و لماشية السكّان وبعض البساتين الصغيرة المروّية من الآبار.

في بينوى أقام الطليان الغزاة سياجاً من الأسلاك الشائكة والألغام يفصل القرية عن "بينوى " والقصير، ولم يترك للمواطنين سوى خرمة واحدة لا يسمح بالمرور عبرها إلا في الصباح الباكر وآخر النهار عند حلول الغروب، لازال الناس يذكرون عسف الجنود الطليان عند هذه الخرمة ويذكرون الذين انفجرت فيهم الألغام نتيجة لجنوح دوابهم عن المسرب المحدد إثناء عودتهم إلى بيوتهم.

موازياً لوادي الفرس وعلى بعد حوالي عشرة كيلو مترات جنوباً يمتد وادي القصير من الغرب إلى الشرق وحيث أنه لم يعد يمتلئ بالمياه فقد أصبح مزداناً بمزارع النخيل على طول حوالي خمس كيلو مترات ،تتلاحق المزارع منبسطة على العدوة الجنوبية للوادي، وقد عرفت

هذه المزارع بجودة تمورها وتنوّع خضرواتها وبدأب أهلها على العمل الصبور، لقد استقطبت هذه المزارع إعدادا كبيرة من المزارعين من منطقة فزّان كانوا يعملون بنظام الحصة في الإنتاج ومع مر السنوات صارت لهم ملكياتهم الخاصة واندمجوا في البنية السكّانية للواحة مع احتفاظهم بسمرتهم الداكنة وبقايا ملامح زنجية وأسماء عائلاتهم الأصلية .

مزارع وادي القصير هذه هي أقدم مزارع مروية في الواحة، يعود عمرها إلى أكثر من ألف سنة ويبدو أن نظاماً معيناً كان يغذي آباره بالمياه حيث كانت أحواض طبيعية تمتلئ بمياه السيول من الوديان الواقعة جنوب القصير ثم تختفي هذه المياه وتجف الأحواض في فترة لا تتجاوز الأسبوع، لقد اكتشف المزارعون بمحض الصدفة أنفاقا محفورة تحت مزارعهم تتجه من الجنوب إلى الشمال وكانت بها فتحات في بعض المزارع على شكل آبار. كان منسوب المياه يرتفع في آبار القصير

ويعذب طعمها عقب كل موسم مطير ،ويقول أحد خبراء الآثار بالمنطقة إن هذه الأنفاق المغروفة باسم الفقارات وتمتد حوالي عشرة كيلو مترات ربما تصل إلى المدينة المطمورة في منطقة سباخ " الجديدة " والمعروفة عند السكّان باسم ساكن بن مسكان أو محلات إزكان كما يقول الرحالة البكري ربما تكون هذه الفقارات قد حفرت في فترة تواجد الجر منت بالواحة حيث أن هذا النظام كان معروفا عند الجرمنت.

كان بدو المنطقة ألوسطى في السنوات التي يحتبس فيها المطر وينعدم المرعى، يتوافدون بقطعانهم وجمالهم على الواحة، ينصبون خيامهم في الجوار، في الجلهة وحفاري الضبع وفي الجفجف المحاذي للقصير يبادلون المزارعين تمورهم وخضارهم بالسمن والصوف ورؤوس الماشية.

لقد نشأ عن تبادل المنفعة هذا علاقات صداقة ومصاهرة بين بدو الجوار ومزارعي الواحة وقد

انعكست هذه العلاقات بشكل إيجابي في سنوات جهاد الليبيين ضد الغزاة الطليان حيث كانت الواحة ملاذاً للمجاهدين ومصدراً لإمدادهم بالرجال والتمور وأخبار تحركات العدو.

لازال الناس في الواحة يتناقلون الحكايات عن عسكر السيد أحمد الشريف الذين استقر بهم في الواحة فترة من الزمان وكانت نساء الواحة تتطوع لهم بطحن الغلال، وعن عبد الجليل سيف النصر وحكومته وعن عبد النبي بالخير وعسكره الذين عسكر بهم جوار القصير وعن باندات خليفة الزاوي وعبدا لله بن عبد الله وعن المجاهد البطل قضوار السهو لي الذي استشهد أعلى قارة عافية في مشهد ملحمي في تلك المعركة الشهيرة التي لازال الناس يذكرون تفاصيلها الدقيقة والتي استمرت ليلة كاملة بين المجاهدين وكتيبة إيطالية مجهزة بأحدث وأعتى الآلات الحربية كانت تتمركز أعلى قارة عافية، هاجمها

المجاهدون القادمون من مختلف قبائل الوسط، وفي الصباح كان أعلى القارة وسفحها مكتسيين بجثث القتلى من الإيطاليين وعملائهم من الباندة وبعدد من شهداء المجاهدين كان نصيب الواحة منهم أربعة شهداء لازالت قبورهم أعلى قارة عافية إضافة إلى تسعة عشر رجلا آخرين اختارهم الطليان من مشايخ واعيان وحفظة القرآن بالقرية تم إعدامهم. شنقا بعد أسبوعين من معركة عافية انتقاماً من أهل الواحة وتأديباً لهم على اشتراكهم في المعركة ودورهم في الجهاد ،ثم نكلوا بسكان القرية وضاحيتها القصير، صادروا محاصيله وماشيتهم وخرّبوا مزارعهم ثم جمعوهم أمام القلعة العسكرية واجلوهم جميعاً إلى مدن الساحل في الخمس ومصرته، اغلبهم سيراً على الأقدام والبعض الآخر في شاحنات عسكرية مكشوفة، لازال العواجيز الذين شهدوا التهجير وعاشوا معاناته يروون لأحفادهم حكايات تلك الرحلة ومشاقها وتلك الباخرة التي

جنحت بهم في عرض البحر وكادت تغرق، ولازال نخيل الواحة في مزارع بينوى والقصير يحمل أثراً في جذوعه يعرف بحزّة عام الجلوة نتيجة لعطش النخيل الذي أدى إلى ضمور في وسط الجذع ولازالت الشاعرة فاطمة عثمان التي جاوزت التسعين من العمر تردد على مسامع زوارها قصيدتها اليتيمة التي انفجرت بها عاطفتها حين رأت أبناء بلدتها معلقين على أعواد المشانق في الفضاء المقابل لبيتها صبيحة الخامس عشر من نوفمبر 1928 م فما كان في استطاعتها إلا أن تصرخ ..

خرا بين يا وطن ما فيك والي

وناسك جوالي

والبعض في المشنقة والقتالي.

هون . 11 . 2003

النخلة

حين تتوه العينُ في الفضاء ويترامى سيل الرمل الشاحب على المدى كثباناً فضّية أو عسلية مايسة بأردافها وثديّها النافرة متماوجة على اتساع الأفق حيث انطباق المدى الأزرق على حواف تلك القباب الشاحبة العسل والمشرقة البياض إذ تتراقص أنهار السراب الدفّاقة جذابة وواعدة رقراقة عذبة تحت اللسان المتيبس مفرحة العين بما ينساب رخيّاً ومرطّبة الحلق منعشة الأطراف ودافعة نشوى الأمل في النفوس العطشى حين تسيل البطاح الجرداء بأعناق المطي المجهدة بأحمالها المتلعة أعناقها الفارهة الطويلة إلى الأمام منتصبة الآذان سابحة في الفضاء الرحب تشوّقاً للراحة والماء حين تتشوّف العيون المجهدة المسهّدة الأجفان لبقعة ظل والشفاه المتيبسة لقطرة طل والرؤوس المرهقة لمتكأ حنون حينها تبسق تلك العروس شاقة المدى سامقة وسط الرمال تقترب وتنأى تتراقص مع تموجان السراب

تختفي حين الو هاد تحتضن الراحلين وتبرز إذ يبرزون إلى الأعلى مظلّة خضراء معلقة في قبة الأفق متخذة أحلى زينة وواعدة بأدفأ حضن وملوّحة بعناق حنون طارحة بهاءها تحت نظر ولمس الشمس رافعة رأسها في شموخ مظلة لمرهق ومتكأ لعاشق وأم حنون لوليد عائد نافرة صدرها البض الحنون عراجين بلح متلألئة الاصفرار رطباً جنياً ومتعة للناظرين تاريخ الحياة البشرية، تاريخ الاستقرار، تاريخ التمدن في وسط مفازات القبلي وبحار الرمل وجفاء الجفجف، هو تاريخ النخلة، هي الوتد الذي يشد الحياة إلى الأرض، ونقطة الارتكاز التي تتكون وتنمو حواليها الواحة ،بخضرتها وزينتها وأطيابها وفنونها، هي الراقصة المغناج في عرس الطبيعة الصحراوية، تصدح من حولها طبول المعاول وهمهمات أغاني العمل للرجال الكادحين فتتمايل طرباً وفرحاً، وتعطي دون شح أو تقتير، تدفع من صدرها النسغ لتطرح عراجينها الرطب اللذيذ والتمر الجيد بما يمتع الإنسان ويغذّيه، وتذرف حليبها لذيذاً حتى

عرف بأنه لاق بي أو لاقبي، وفي سنوات المحل والمجاعات لم تبخل حتى بحشايا جذعها فيما عرف بالفكريس كمصدر للغذاء.

يتألق جذعها الباسق حاملا تلك المظلة الخضراء المزدانة بصفرة وحمرة عراجينها فسيفساءْ الألوان المثقلة بناضج الثمار بلحا ورطبا وتمراً. هي الحافظة للحياة بكرم عطائها رغم بخل وشح صحراء محيطها، وهي مصدر الدفء تمراً وحطباً وسقوفا تقي من البرد وتأمن من الخوف.

هي في ذاكرة الطفولة دفقة حبّ وأغنية فرح ،تتزين البنات الصغيرات بضفائر من سعفها الأبيض وخواتم في الأصابع حين يحتفلن بملاقاة الربيع، ويلعب الأطفال بطائرات من السعف ويركبون جمال الكر ناف أو حصان الجريدة.

الواحة والنخلة رفقة أزلية منذ نشأت الحياة المستقرّة في الصحراء وإلى أن تتلاشى ويطمس الرمل كلّ شيء، هي محور الارتكاز الأول ونقطة التلاشي الأخيرة، منذ

مئات بل آلاف السنوات تدلل بقايا الأرومات تحت الرمال المحيطة أن النخلة كانت هنا ولا تزال في رمال عبد السعيد أو العبد سعيد أو العبد السعيد جوار المدينة الحويلة حين تكشط الرياح الرمال تبرز بقايا ارو مات النخل وبقايا قنوات الري المبلطة بالجبس وأطلال الآبار، وحين تحاول نبش ذاكرة العواجيز ووثائق الملكية والطابو لا تجد أكثر من اسم عبد السعيد لمساحة واسعة من الرمال تحاذي المقبرة القديمة والتي ترجع نشأتها إلى منتصف القرن الخامس عشر الميلادي.

خلف رمال عبد السعيد هذه عاش محتمياً بها بدوي قادم من الجنوب بعد أن أضاع نيا قه واستقر به المقام وسط الرمال مغزولاً عن حياة الناس منذ أواخر الستينات من القرن الماضي وإلى عام 2001 ميلادي، عاش متوحشاً منفرداً لباسه بطانية يلفّها حول جسمه وشريط مطاط حول قدميه وساقيه يقتات على الدقيق والتمر فقط ويشرب من ماء البئر التي حفرها بنفسه

وينام تحت شجرة أثل عتيقة. ومع مر الأيام والأسابيع أصبح "أبو المعارف" معلماً من معالم الجوار ومصدراً للحكايات ومكاناً لفرجة السواح المحلّيين والأجانب، ولا أدري لماذا سمّي أبو المعارف ، فالرجل أمي ولا يجيد أي فن من فنون القول أو العمل ، وربما مصدر الطرافة والإعجاب فيه هو قدرته على العيش وسط الصحراء محاطاً بالرمل وعائش بشكل بدائي لا يعرف الدواء ولا الكساء ولا الطعام الذي نألف ، ربما هو نموذج عالي الانتقاء لحياة إنسان هذه المنطقة في مر حلة موغلة في القدم ،ربما يمثل اسم أبو المعارف مقروناً باسم عبد السعيد أو العبد السعيد واحدة من مفارقات الرمل الذي يطمر متى يشاء ويظهر ما أخفاه حين ترقصه الرياح وتحمله على بساطها.

وسط بحار الرمال هذه تواصل النخلة تحدّيها للتصحر وبعثها للحياة من حولها، تعاون الإنسان على قهر الجفجف والصمود في وجه الرمل ويعاونها الإنسان في

إرواء ظمئها وذود الرمل عن أحواضها وقنواتها وآبارها.

رحلة الإنسان مع النخلة رحلة طويلة وشاقّة وممتعة ومثمرة، إذ يتعهدها كما تتعهد ألام وليدها فسيلة صغيرة ذات جذر بنّي غامق مكتنز ومجموع خضري صغير، يحفر لها جورة عميقة، يملأها بتربة جديدة صالحة وبشيء من السماد، يغرس الجذر في التربة ويكسو رأسها الأخضر ببعض الليف وقاءً لها من زمهرير ريح الشتاء أو صهد القبلي ، وكما تتعهد الأم رضيعها يتعهد ها بالري المنتظم الدائم عامين كاملين إلى أن تفرد جريدها الصغير وسعفها الغض وتأخذ شكلها كنخلة صغيرة وفي العام الثالث أو الرابع غالبا تبدأ في الإثمار.

حواليها يحرث الفلاحون التربة ويزرعون الخضروات والحبوب التي تشكل لهم عيش الكفاف ومن بقايا النباتات والمزروعات والتمور يعلفون دوابهم وماشيتهم التي من مخلّفاتها يسمدون التربة حوالي النخلة، هكذا

هي دورة الحياة لديهم تبادل للمنفعة وبذل للجهد لا يتوقف، يرعى الإنسان النخلة وتطعم النخلة الإنسان.

هون 5 . 2 . 2003

النبع

نخبك أيها الدبري الكبير يا أحد الأجداد الأفذاذ الذين حاربوا القبلي وروضوا الجفجف الخشن وعمروا في شدق الصهد جنانا صغيرة تجود بالرطب العذب وتعبق بالورد البلدي في بينوى حيث كان العشب في المواسم المطيرة يصل حتى سرة الرجل وحين كانت الأرانب البرية في الوديان المجاورة تسمن حتى لا تستطيع المسير نخبك أيها ألدبري الكبير نخب تلك السنوات الخوالي التي كنتم تغرسونها نخيلاً وتسمّونه" صيّوراً "مطلقين صيرورتكم فيه وحالمين لأحفادكم بحياة أجمل لكنهم دون أسف حين غمرتهم نشوة النفط غمروا بساتينكم المهملة بمخلفاتهم المدينية لكن لا تحزن أيها الجد العتيد يا دفين المقبرة القديمة حتى وإن حاصرت العمارات الفخمة قبرك البسيط بظلها الحائل فإن نخلاتك العزيزات التي وهبتها كامل عمرك لازالت ملء العين والفؤاد لازالت وبما أورثتها من عناد تغالب

الصهد وتسمق في سماء حقلك الصغير طارحةً من الظل ما يكفي لإغفاءةٍ هانئة ومن الرطب ما يسد الرمق و من الحب ما يكفي لإرقاص المدينة حتى الفجر هنا وحيث يلتئم جمع الأصدقاء الشعراء والمسرحيّون وأهل الطرب وحيث ينيرُ جلستهم المبهجة نفس القمر الذي رافق أيام كدحك وصبواتك هنا حيث يحتضنُ العود احد أحفادك

الذي أورثته لوثة الفن و يباس الرأس إذ تضغط أصابع يسراه على الأوتار وتنطق يمناه النغم وحين ينساب صوته ألطفلي بدفء وفي سهولة ويسر " سكب . . سال دمع الميامي حذايف ، وعقلي مرا يف، أنا الليل ما نرقده من الزنايف " يرفع الأصدقاء السابحين في فضاء التجلي كؤوسهم إلى أعلى رؤوسهم وفي رشقة طرب غامرة يدلقونها أسفل جذع تغياتك الأعوج نخبك أيها ألدبري الكبير نخب كل الأجداد الذين عمروا بينوى بالنخيل.

هون في 26 . 8 . 2003

المـزار

الرملُ نسيان يتراكم ينيخ بكلكله على صدر المكان ملاعب الطفولة التي لم تعرفْ اللعب وبساتين رمّانٍ كانت تزهو بفاكهتها الصحراوية إذ تتحني أغصان شجيراتها حتى تلامس الأرض تقلّب الريح صفحاته حين تهب مزمجرةً من جهة الغرب كغرانيق ضخمةٍ يضج نعيقها الحاد تضرب بأجنحتها الطويلة كثبان الرمل الكسول تذروه عالياً وترمي به في مناخ آخر لبروكه تفك طلاسم سحره تقرأ ما تراكم تحته من أطلال المدينة الحويلة العابثة بالزمن والمشمولة بالصمت وبركات الشيخ صاحب القبة البيضاء والمسبحة الطويلة المتناثر حولها بقايا الأزقة والبيوت الملتحفة بالرمل كحسناء تخفي بعباءتها مباهج الجسد تتضوعُ الأحجار القديمة بعبق بخور معتق عبر مئاتها الأربع لنساء كنَّ

هنا يحسنّ إعداد الطعام وإنجاب الأطفال ينسجن أردية صوف وخيوط مودّة لرجال أدمنوا عشقهن وتغمر الجو المندّى بطراوة المساء دمدمة طبل النخيخة حين يتحلق حوله العشاق الشباب يرفع أكثرهم عشقاً عقيرته بالغناء " عيون سود في موله الخدود نقية " إيه يا ذات العيون السود والخدود النقية المتضوعة اردانها بالقماري والمحلب ما الذي ظل منك في ذاكرة الأيام سوى هذه الدفقة في قصيدة الشاعر المحب أين ذهبت العيون الواسعة الكحيلة والخدود النقية البياض والشفاه الأقحوانية المخضّبة بالسواك والقوام الرشيق مثل آبلة بكرة أين اختفى الاكتناز البض للصدر والردفين وفي أي رمل تناثرت أغمار ذاك الشعر الطويل اللامع من كل ذاك الجمال لم يبقَ سوى كمشة عظام شديدة البياض يحتضنها الرمل جوار ضريح الشيخ السادر في الحياة رغم موته الضارب في القدم لازال ذكر كراماته وأعماله المبهرة ملء رؤوس العواجيز وحكايات الجدات

لأحفادهن حين يستدفين بوهج الماضي الحميم حيث كان الشيخ بسيف كلماته وما في اردانه من بركة يصد هجمات قطاع الطرق ولصوص التمور ضارباً حول مدينته سوراً من الهيبة لزالت بقاياه تثير نفوس مريديه وتلهب خيال زوّاره الساكبين أحزانهم وشكواهم فوق غطاء ضريحه المزين بخيوط الحرير والآيات القرآنية مستنجدين ببركاته أن يقضي حوائجهم ويفك عسرتهم وما يتخبطهم من المس ترفع النساء المحبطات وذوات النوايا الطيبة أيديهن بالتوسل الملحاح ويغرس الرجال العاثرو الحظ أقدامهم ـ في الرمال طلباً لراحة النفس والبدن.

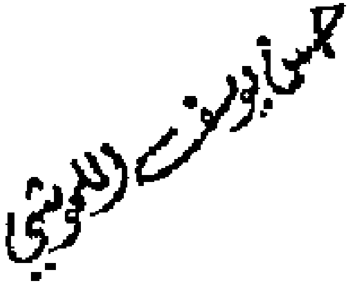
"هون" في 30 . 9 . 2003

إزكـــان

مُتحدِراً من قلب الصحراء حيث يتراقص لمعان جبال السوداء وتحتك الغيمات المثقلة الشاردة في الفضاء كأسراب نعام صحراوي بسنام الصخر اللماع كمرايا إلهية عاكسة ذوب القمر حليباً رائقاً إذ تتقافز شياه الودّان الضّاجة تفور رشاقتها عبر الشعاب مغتبطةً بما في كهوفها من دفْ و ما في الجوار من عشب و ما في الجداول من ماء ناطحة في حبور مفرط قبة الأفق بتاج قرونها مالئةً السفح بصيحاتها الثقابة وركضها عبر كل اتجاه مُلهبةً شهية الصيادين المتربصين بأعينٍ مشدودة على أوتار نشاباتهم بسراب اقتناصها طرائِد فخمة تشعل الخيال إذ يموج بها السهل تشتهي النساء المكتنزة الصدور رشاقتها الكسول وما في أعينها من كحل الطبيعة و يُداعب نزوات الرجال ركضها الفتَّان

وما يلتمع على ظهورها من وبر ناعم ترتسم صورتها الفاتنة على صفحة الماء يهرُب بها المسيل المتحدر شرقاً في تدفقه الموسمي ممزوجة بفتيت الصخر وارومات أشجار السدر والطلح البرّي و أعواد الرتم الخضراء يطرحها عند أقدام أنثاه الطينية قرابين مودَّة و تعويذةً من سنوات الجفاف حيث تزرع النسوة المنتظرات بلهفتهن المشبوبة وسخونتهن اللافحة بساتين الرمان القرمزي الحمرة وفسائل النخيل الحالم بأحمال التمر مواسم العمر كله يروّينها بدموع الفُرقة وتنهدات الانتظار على مر الشهور والسنوات وعلى تعاقب الفصول والمواسم في قيلولات القيظ إذ ترضع أجسادهن الضامرة الطراوة من أرضيات بيوتهن الطينية وفي ليالي الشتاء حيث يستدفين حول مواقد الفحم الخشبي متسربلات بحكايات تتوالد عبر الشفاه عن رجال يتفاخرون بطرائدهم من ذكور النعام بسيقانها الطويلة ورياشها الزاهية وما يحلبونه من عظامها من زهم طبي هناك

حيث تنزل قبة السماء حتى تلامس شفاهها الأرض في قبلة تجتمع فيها الأنوثة كلها هناك تنهض إزكان منذ أزمان غابرة مذ تزاوج الماء و الطين إذ ترفع جدرانها الطينية يلتمع بّراقها الناصع البياض وتشمخ قلاع أسوارها معوّذةً بقرون الوعول ومثلثات الربّة تانيت راعية فحولة الرجال الملتحفين بالصهد والمستحمين في القبلي وأنوثة النساء و دفئهن ولهفة الأطفال أن يُصبحوا رجالاً وهُم في مقتبل الطفولة ورغبة البنات أن تنضجَّ أنوثتهن ما أن ينزلن ماء الغدير مغتسلات بما يحمل المسيل من رائحة الودَّان وأعشاب الصحراء هكذا هي إزكان مذ نبتت على حافة الغدير كنبتةٍ صحراوية شديدة الحذر و شهية الاكتناز تتلاصق بيوتها الطينية عبر شوارعها المتلاصقة وأزقتها الضيقة ابنة المسيل وعروس الصحراء عشيقة الجبل ومرقد إغفاءة الماء تضوع وسط غابات نخيلها متوسدةً كثيب رمل ومولجة أقدامها في الغدير.



الفهرس

القصيدة	رقم الصفحة
1 _ طرابلس	5
2 _ المدينة	13
3 _ كلمات	17
4 _ لوديف 2005	25
5 _ مرسيليا	33
6 _ مصراته	39
7 _ غدامس	45
8 _ سياحة	51
9 _ الجفجف	57
10 _ الواحة	65

القصيدة **رقم الصفحة**

11 ـ النخلة 75

12 ـ النبع 83

13 ـ المزار 85

14 ـ إزكان 89

* * *

تنفيذ الطباعة والتجهيزات الطباعية

دار قباء الحديثة

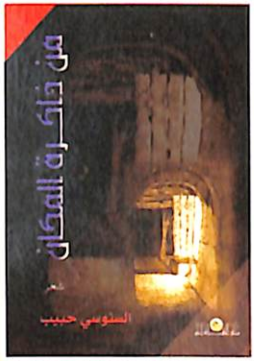
للطباعة والنشر والتوزيع - القاهرة

جمهورية مصر العربية

16 عمارات العبور - شارع صلاح سالم - مدينة نصر

تليفاكس 02/22621365 - محمول 0123140315

E-mail: modern_qubaa@hotmail.com



■ يقدّم مجلس الثقافة العام للقارئ الكريم مجموعةً من إصداراته الجديدة المتنوعة ، التي تتضمن أجناسًا أدبيةً وفنيةً ، تهدف إلى دعم الكتاب ونشر المعرفة وتنمية الذائقة الجمالية وإثراء الحركة الثقافية .. آمِلاً إسهامًا جادًا يضيف إلى الحراك الثقافي رصيدًا مميزًا وفضاءً جديدًا للمعرفة وللحياة.

مجلس الثقافة العام